بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره، ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فلقد تعددت وجهات نظر الفلسفات المادية والوضعية حول خلق الإنسان وغاية وجوده في هذا العالم، وإلى أين يصير بعد هذه الحياة الدنيا؟

ونظرًا لأن كل هذه الفلسفات إنما تنطلق من خلفيات ثقافية واعتقادية مختلفة، بعيدة كل البعد عن وحي السماء فقد ضلت الطريق وجانبها الصواب.

أما الإسلام - الرسالة الخاتمة - فقد تحدث عن الإنسان - من خلال القرآن والسنة - موضحًا بل مجيبًا على هذه الأسئلة التي حارت فيها عقول أصحاب الفلسفات المادية..

من أين أتى الإنسان؟

وكيف أتى؟

ولماذا أتى؟

وما المصير بعد الموت؟ إلى غيرها من الأسئلة ...

ولذا نستطيع أن نقول: إن الإسلام قد بين - بما لا يحتاج إلى مزيد - قيمة

الإنسان ومكانته في هذا الوجود، كما بين غاية وجوده ومقصد الخالق من خلقه، وما أعظم الفرق بين هذا الإنسان - إنسان الإسلام - والإنسان كما تصوره الفلسفات المادية والوضعية.

وصدق الله: **{أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}** [الأنعام: 122].

ولقد قام فضيلة الشيخ العلامة الدكتور يوسف القرضاوي - في هذه المحاضرة - بعرض هذا الأمر وتجليته من خلال كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأقوال علماء المسلمين، فجزاه الله خير الجزاء.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

للإنسان في الإسلام قيمة كبيرة، ومكانة رفيعة نوه بها القرآن الكريم، ونوهت بها السنة النبوية وأشاد بها علماء الإسلام في كل اختصاص، فالإنسان هو المخلوق الذي كرمه الله تعالى: **{وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ}** [الجاثية: 13].

تحدث القرآن عن الإنسان وخصائصه ورسالته وأحواله في عشرات، بل مئات من آياته. وحسبنا أن أول فوج من آيات الوحي الإلهي نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم - وكانت خمس آيات - لم تغفل شأن الإنسان وعلاقته بربه علاقة التكريم، وعلاقة الهداية والتعليم - واختارت الآيات لفظ «الرب» لما يشعر به من التربية والرعاية والترقية في مدارج الكمال، هذه الآيات الأولى في القرآن هي قوله تعالى: **{ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ1 خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ2 ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ3 ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ4 عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ}** [العلق: 1 - 5].

والحق أن القرآن كله إما حديث إلى الإنسان، أو حديث عن الإنسان. حقًّا إن الإنسان شيء ضئيل بالنسبة لسعة الكون من حيث حجمه وحياة جسمه، ولكنه من حيث روحه وكيانه المعنوي شيء كبير، وهل الإنسان في الحقيقة إلا ذلك الروح وذلك الكيان المعنوي؟

وقد نسب إلى الإمام علي رضي الله عنه قوله يخاطب الإنسان:

دواؤك فيك وما تبصر ودواؤك منك وما تشعر

وتـــزعم أنـــك جـــرم صـــغير وفيـــك انطـــوى العـــالم الأكبـــر

وحقًّا إن الإنسان من حيث عمره القصير على الأرض ذرة في صحراء الأزمنة البعيدة الضاربة في أغوار القدم، ولكن المؤمنين يوقنون أن الموت ليس نهاية الإنسان، إنه محطة انتقال إلى الأبد الذي لا نهاية له، وإلى دار الخلود.. إلى حيث يقال للمؤمنين: **{سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ}** [الزمر: 73].

مكانة الإنسان من الله:

وفي آيات كثيرة من سور شتى بين القرآن قرب الإنسان من الله سبحانه، وقرب الله تعالى من الإنسان، وذلك القرب القريب الذي حطم أسطورة الوسطاء السماسرة المرتزقين بالأديان، الذين جعلوا من أنفسهم «حجابًا» على «أبواب» رحمة الله الواسعة، والله يعلم أنهم كاذبون. قال الله في القرآن الكريم: **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ}** [البقرة: 186].

فالله تعالى - مع علوه على خلقه - قريب منهم، بل هو معهم أينما كانوا كما قال سبحانه: **{وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ}** [الحديد: 4]، **{وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ}** [البقرة: 115].

ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في أحاديث عن ربه: **«أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن**

أتاني يمشي أتيته هرولة»[1].

وحتى العصاة المسرفون على أنفسهم ليس بينهم وبين الله تعالى حجاب، قال تعالى: **{قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ}** [الزمر: 53]. فرغم عصيانهم وإسرافهم على أنفسهم لم يحرمهم من شرف انتسابهم إليه، وناداهم: **{يَٰعِبَادِيَ}**.

* * *

(1) رواه البخاري في كتاب «التوحيد»، ومسلم في «الذكر والدعاء»، انظر: «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» حديث (1713).

مكانة الإنسان في الملأ الأعلى

أما مكانته هناك في الملأ الأعلى - عند العوالم الروحية العلوية - فهي مكانة اشرأبت إليها أعناق الملائكة المقربين، وتطاولت إليها نفوسهم فما أتوها. فإن المخلوق الذي اختار الله تعالى له هذه المكانة - خلافة الله في الأرض - هو الإنسان: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}** [البقرة: 30].

ويذكر القرآن أن الله تعالى عقد امتحانًا بين آدم والملائكة، ظهر به فضل آدم وتفوقه في مجال العلم والمعرفة، فقد علمه الله الأسماء كلها، على حين لم يمنح ذلك للملائكة(2).

هذا وقد أراد الله أن يكرم هذا النوع في شخص الإنسان الأول، ويحتفي به، ويظهر مكانه في تلك العوالم الروحية، فأمر الملائكة أن تؤدي التحية لهذا الكائن الجديد وتستقبله بانحناءة إجلال وإكبار: **{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ71 فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ72 فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ73 إِلَّآ إِبْلِيسَ}** [ص: 71 - 74].

لقد تمرد إبليس على أمر ربه بالتحية لهذا الإنسان ودفعه الحسد والغرور أن أبى واستكبر وكان من الكافرين. واتخذ من الإنسان موقف التحدي والعداء، فما كانت عاقبة هذا العدو المبين؟ كانت كما ذكر القرآن: **{قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ77 وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ}** [ص: 77، 78]. وتلك هي

---

(2) انظر: [سورة البقرة: 21، 32].

مكانة الإنسان في العوالم الروحية.

* * *

مكانة الإنسان في هذا العالم المادي

أما مركز الإنسان في هذا الكون المادي العريض، فهو مركز السيد المتصرف الذي سخر كل ما في العالم لنفعه ولإصلاح أمره، وكأن كل شيء في هذا الكون قد «نسج» من أجله و«فصل» على «قده» تفصيلًا: **{ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ32 وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ33 وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ}** [إبراهيم: 32 - 34]. وتلك هي مكانة الإنسان في هذا الكون وصلته بما فيه.

وما الذي بوأ الإنسان هذه المكانة السامية وفي الكون أجرام أضخم منه وأكبر؟ إنه سر القبس الذي هو فيه من نور الله، والنفخة التي فيه من روح الله. تلك النفخة التي جعلته مستعدًّا للخلافة في الأرض، لحمل الأمانة الكبرى، أمانة التكليف والمسؤولية تلك التي صورها القرآن تصويرًا أدبيًّا رائعًا حين قال: **{إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُ}** [الأحزاب: 72].

هذا الاستعداد في الإنسان هو الذي جعل مصيره بيده، بعد أن يسر الله له سبل الهداية، وأزاح عنه كل الأعذار: **{بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ}** [القيامة: 14]. **{وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا7 فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا8 قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا9 وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا}** [الشمس: 7 - 10].

ولقد سما الإسلام بالإنسان فاعترف به كله، روحه وجسده، وعقله وقلبه،

وإرادته ووجدانه، وغرائزه الهابطة، وأشواقه الصاعدة، لم يضع في عنقه غلًّا، ولا في رجله قيدًا، ولم يحرم عليه طيبًا، ولم يغلق في وجهه باب خير، ولم يدعه للمتاجرين بالدين يتلاعبون به، بل خاطبه خطابًا مباشرًا: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ6 ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ7 فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ}** [الانفطار: 6 - 8]. **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ}** [الانشقاق: 6].

* * *

علماء الإسلام يشيدون بمكانة الإنسان

هذه صورة سريعة، لكنها واضحة التقاسيم لمكانة الإنسان كما رسمها القرآن، وقد أشاد بهذه المكانة كل أئمة الإسلام وعلمائه في مختلف البيئات والاختصاصات.

يقول الفقيه أبو بكر ابن العربي: «ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن الله تعالى خلقه حيًّا عالمًا، قادرًا متكلمًا، سميعًا بصيرًا، مدبرًا حكيمًا، وهذه هي صفات الرب - جل وعلا...».

ويشرح الإمام الغزالي في «إحيائه» أسباب محبة العبد لله تعالى، فيذكر منها المناسبة والمشابهة بين ذات الإنسان وذات الله عز وجل ، وهي مناسبة باطنة لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال، بل إلى معانٍ باطنة، يجوز أن يذكر بعضها في الكتب، وبعضها لا يجوز أن يسطر. قال: «فالذي يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية»، حتى قيل: «تخلقوا بأخلاق الله»، وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق، والنصيحة لهم، وإرشادهم إلى الحق، ومنعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة، فكل ذلك يقرب إلى الله ععع.

أما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الآدمي فهي التي يومئ إليها قوله تعالى: **{وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}** [الإسراء: 85]. إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق.

وأوضح من ذلك قوله تعالى: **{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي}** [ص: 72]. ولذلك أسجد له ملائكته. ويشير إليه قوله تعالى: **{إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ}** [ص: 26][3]. إذ لم يستحق آدم خلافة الله إلا بتلك المناسبة... وإليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم : **«إن الله خلق آدم على صورته»**[4]. حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس، فشبهوا، وجسموا، وصوروا - تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوًا كبيرًا - وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى: «مرضت فلم تعدني! فقال: يارب، وكيف ذلك؟ قال: مرض عبدي فلان فلم تعده، ولو عدته لوجدتني عنده»[5]. وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد أحكام الفرائض كما قال تعالى في الحديث القدسي[6]. **«لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به..»**[7].

ويقول الإمام ابن القيم: «اعلم أن الله عمع اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه، وخلقه لنفسه، وخلق كل شيء له، وخصه من معرفته ومحبته، وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره، وسخر له ما في سمواته وأرضه وما بينهما، حتى ملائكته - الذين هم أهل قربة - استخدمهم له،

---

(3) الظاهر أنه يقصد آية البقرة (30): **{إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً}** كما يبدو من تعقيبه على الآية. أما الآية التي ذكرها فهي خطاب من الله لداود عليه السلام.

(4) الحديث متفق عليه عن أبي هريرة، كما في «الجامع الصغير» الحديث رقم (3928) مع «فيض القدير».

(5) رواه مسلم، وليس فيه أنه خطاب لموسى.

(6) رواه البخاري عن أبي هريرة.

(7) «إحياء علوم الدين»، ربع المنجيات (ص263).

وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته، وظعنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه، وخاطبه وكلمه منه إليه، واتخذ منهم الخليل والكليم، والأولياء والخواص والأحبار، وجعلهم معدن أسراره، ومحل حكمته وموضع حبه، وخلق لهم الجنة والنار، فالخلق والأمر، والثواب والعقاب، مداره على النوع الإنساني فإنه خلاصة الخلق هو المقصود بالأمر والنهي، وعليه الثواب والعقاب.

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات، وقد خلق أباه بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات، وطرد إبليس عن قربه، وأبعده عن بابه، إذ لم يسجد له مع الساجدين، واتخذه عدوًا له.

فالمؤمن من نوع الإنسان: خير البرية على الإطلاق، وخيره الله من العالمين. فإنه خلقه ليتم نعمته عليه، وليتواتر إحسانه إليه، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته، ولم يخطر على باله، ولم يشعر به...»[8].

* * *

(8) «مدارج السالكين» (210/1)، ط. السنة المحمدية.

منزلة الإنسان المؤمن خاصة

وإذا كانت هذه هي منزلة الإنسان في الوجود، من حيث هو إنسان، فإن منزلته تعلو وتعظم حينما يؤمن بالله تعالى، وبرسالاته، ويؤمن بلقائه وحسابه في الدار الآخرة. إن هذا الإنسان المؤمن هو روح الحياة، وإكسير العالم، وهو خير البرية وأفضل الخليقة، كما قال تعالى: **{إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ}** [البينة: 7].

إنه المخلوق الذي جعله الله له وليًّا: **{ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ}** [البقرة: 257].

وخصه سبحانه بمعيته - معية الحفظ والتأييد - فقال: **{وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ}** [الأنفال: 19].

وهو الذي تكفل الله بنصره والدفاع عنه: **{وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ}** [الروم: 47]، **{إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ}** [الحج: 38].

وهو الذي وعد الله أن ينجيه من الشدائد والكربات وإن تفاقمت كما نجى يونس من بطن الحوت: **{فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُۡجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ}** [الأنبياء: 88].

وهو الذي ينزل ملائكته لتؤيده وتشد أزره: **{إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ}** [الأنفال: 12].

وهو الذي أعد الله له جنته ودار مثوبته، ومظهر رضوانه ومحبته: **{سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ**

ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ} [الحديد: 21].

* * *

أثر هذه الفكرة في حياة الإنسان

لا ريب أن اعتقاد الإنسان بكرامته على الله، ومكانته في الملأ الأعلى، ومركزه القيادي في هذا الكون - وخصوصًا بعد إيمانه بالله تعالى - يجعله يشعر بذاته، ويغالي بقيمة نفسه؛ لأنه يعتز بانتسابه إلى الله، وارتباطه بكل ما في الوجود، فيحيا عزيز النفس، عالي الرأس، أبيًّا للضيم، عصيًّا على الذل والهوان، وبعيدًا عن الشعور بالتفاهة والضياع والعدم والفراغ، وهذا الإحساس الذي يعيش به المؤمن ليس شيئا هينًا ولا بضاعة مزجاة، إنه كسب كبير ومغنم ضخم للإنسان، كسب له في عالم الشعور والتصور وفي عالم الواقع والسلوك.

وما أعظم الفرق بين رجلين: يعيش أحدهما وهو يعتقد في نفسه أنه مجرد «حيوان» من فصيلة راقية ليس له قبل حياته جذور، وليس له بعد موته امتداد، وليس له في حياته صلة بالوجود الكبير أكثر من صلة القرود به، ويعيش الآخر وهو يعتقد أنه خليفة الله في أرضه، ونائبه في إقامة الحق، وإفاضة الخير، وإشاعة الجمال في هذا الكون! ويشعر بأن الكون كله في خدمته، والملائكة الكرام في حراسته، وأن رب الوجود في معيته، وأنه من فصيلة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن وجوده لا ينتهي بالموت، وداره لا تنتهي بالقبر، فإنما خلق للخلود وللأبد الذي لا ينقطع ولا يزول.

إن هذا الشعور الأصيل، الذي بلغ حد الاعتقاد واليقين بمنزلة الإنسان في الكون عامة، ومنزلة المؤمن خاصة، هو أحد النقاط الرئيسية التي تخالف فيها

عقيدة الإسلام التفكير المادي الذي يسود الحضارة المادية اليوم في النظرة إلى الإنسان[9].

* * *

(9) انظر: فصل «الإيمان وكرامة الإنسان» من كتابنا «الإيمان والحياة» (ص51) وما بعدها. ط. مؤسسة الرسالة/بيروت. وفصل «الإنسانية» من كتابنا «الخصائص العامة للإسلام»، نفس الدار المذكورة.

الإنسان هو المقصود من خلق العالم

ويبدو للمتأمل في آيات القرآن الكريم أن خلق الإنسان واستخلافه في الأرض، وابتلاءه بالتكليف، وترتيب الثواب والعقاب عليه - وخصوصًا الثواب للمؤمنين الصالحين - هو الغاية من خلق العالم كله: علويه وسفليه، أو بتعبير القرآن: سمواته وأرضه.

ويقول تعالى من آخر آية من سورة الطلاق: **{ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا}** [الطلاق: 12]. فالخطاب في الآية للمكلفين من بني الإنسان، والغاية واضحة في الآية الكريمة، دلت عليها لام التعليل: **{لِتَعۡلَمُوٓاْ}**.

* * *

الغاية المعرفية للإنسان

فالغاية إذن من خلق هذا العالم الرحب الضخم - الذي يسكن الإنسان في جزء منه صغير صغير هو كوكب الأرض من مجموعته الشمسية التي هي جزء صغير صغير من مجرتنا الكبيرة التي يسمونها «سكة التبانة»، والتي هي أيضًا جزء صغير صغير بالنسبة لمجموع العالم الذي يحتوي على ملايين المجرات الأخرى - هي معرفة المكلفين المخاطبين بالقرآن رب هذا العالم وخالقه، ومعرفته بأسمائه الحسنى وصفاته العليا التي دل على خلقه لهذا الكون، وتدبيره له، وإحكامه لكل ما فيه على أدق نظام، وأروع تنسيق، وأبرز الصفات الدالة على ذلك: صفة القدرة الشاملة، وصفة العلم المحيط، ولهذا قالت الآية معللة: **{لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}** [الطلاق: 12].

فلا يطمع الإنسان أن يعرف ذات الله تعالى، ويدرك حقيقتها فهذا تطلع إلى ما لا يمكن له، كيف وهو لم يدرك حقيقة ذاته هو، ولم يحط بحقيقة «الروح» التي بها يحيا، لم يعرف تمامًا كيف يعمل العقل، إلى حد أن ألف أحد أقطاب العلم كتابًا سماه: «الإنسان ذلك المجهول»![10].

إن كثير من الحقائق المادية لم يعرف الإنسان إلى اليوم كنهها، إنما يعرف آثارها، فكيف بشأن الألوهية العليا، التي تحيط بكل شيء، ولا يحيط بها شيء؟ إن كل ما يطلب من الإنسان - وما يمكنه - أن يعرفها من آثارها، ولا يتجاوز ذلك فيغرق في بحر لا قرار له ولا ساحل. ومن ثم جاء في الحديث:

---

(10) هو الدكتور ألكسيس كاريل الحائز على جائزة «نوبل» في العلوم.

«تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله»[11]، **«تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله»**[12]، ويقول القرآن: **{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}** [البقرة: 255]. ولقد حاول بعض مفكري المسلمين ومتكلميهم أن يقتربوا من لجج هذا البحر الخضم فأوشكوا أن يغرقوا، فابتعدوا عنه، وحذروا منه، ويقول الإمام فخر الدين الرازي: «ت606هـ - 1210م» صاحب التفسير الكبير والكتب الشهيرة في «الأصولين» أصول الدين وأصول الفقه، بعد أن حصل أفكار المتقدمين والمتأخرين:

العلم للرحمن جل جلاله وسواه في جهلانه يتغمغم

ما للتراب وللعلوم وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم!

وينشد الإمام الشهر ستاني: «ت548هـ - 1153م» في أول كتابه «نهاية الإقدام في علم الكلام»:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسرحت طرفي بين تلك المعالم فلم أر إلا واضعًا كفَّ حائر على ذقن، أو قارعًا سن نادم.

وصرح بذلك الإمام الغزالي «ت505هـ - 1111م» في «الإحياء» وصنف في وجوه القول فيه في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله

---

(11) رواه أبو نعيم في «الحلية» عن ابن عباس، كما في «الجامع الصغير» للسيوطي، وسنده ضعيف جدًّا.

(12) رواه أبو الشيخ في «العظمة»، والطبراني في «الأوسط»، وابن عدي في «الكامل»، والبيهقي في «الشعب» عن ابن عمر، كما في «الجامع الصغير». والحديث ضعيف الإسناد، وقد حسنه الألباني بتعدد طرقه. وذكره في «صحيح الجامع الصغير»، مع أن طرقه كلها شديدة الضعف، على أن معناه صحيح.

الحسنى».

ومن الصوفية اشتهر عن أبي القاسم الجنيد «ت297هـ - 910م» أنه كان يقول: لا يعرف الله إلا الله!.

والمعتزلة - على خوضهم في بحر الإلهيات - نجد منهم مثل العلامة ابن أبي الحديد «ت655هـ - 1257م» في شرحه كتاب «نهج البلاغة» المنسوب للإمام علي رضي الله عنه، يتعرض لهذه القضية في مواطن من شرحه، ويذكر فيه كلمات بليغة نثرًا وشعرًا مع توغله في علم الكلام، ومن شعره يخاطب الفلاسفة:

هل أنتموا إلا الفرا ش رأي السراج وقد توقد
فدنا فأحرق نفسه ولو اهتدى رشدًا لأبعد

وقال أيضًا يخاطب الذات الإلهية:

سافرت فيك العقول فما ربحت إلا عناء السفر
فلحا الله الألى زعموا أنك المعلوم بالنظر
كذبوا إن الذي زعموا خارج عن قوة البشر(13)

قال العلامة أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليماني الشهير بابن الوزير: «ت840هـ - 1436م» بعد أن أورد هذه الأقوال وغيرها: «ودع عنك هؤلاء كلهم، فقد كفانا كتاب الله تعالى حيث يقول سبحانه: **{وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا}** [طه: 110]. ولا أوضح من القرآن إذا أجير من التأويل بغير برهان!».

---

(13) ذكر هذه الأقوال كلها وغيرها العلامة ابن الوزير «ت840هـ» في كتابه «إيثار الحق على الخلق» (ص139)، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.

وكيف نتأول ذلك؟ وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو المبين لكتاب الله - يقول في هذا المقام: «**سبحانك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[14].

هذا هو أفصح وأعلم من ترجم عن ممادح ربه سبحانه، وهو المؤتي في ذلك لجوامع الكلم وحسناها وأنفسها عند الله وأسناها، وهو المخاطب بقول الله تعالى: **{وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}** [النساء: 113]. فاعترف عليه السلام بقصور عباراته عن بلوغ المرام في هذا المقام، فكيف بسائر الأنام؟![15]. هذا هو مكان الغاية المعرفية للإنسان من خلق العالم، كما دلت عليه آية: **{أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا}** [الطلاق: 12].

والاستدلال بهذه الآية الكريمة في آخر سورة الطلاق يغني عن الاستدلال بالحديث القدسي الذي يذكره بعض الصوفية في كتبهم، وهو: «**كنت كنزًا لا يعرف فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقًا فعرفتهم بي، فعرفوني**»، وفي لفظ: «**فتعرفت عليهم فبي عرفوني**». فالحديث لا أصل له عند أئمة الحديث[16].

---

(14) رواه مسلم في «صحيحه» (486) كتاب «الصلاة»، وأبو داود (879)، وابن ماجه (3841) من حديث عائشة «**اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»، ولم أجد في «الأصول» لفظ «سبحانك»، وهي مشتهرة على الألسن. وقد روي من حديث علي أيضًا في «اليوم والليلة» للنسائي (891) وفيه انقطاع، وابن ماجه (1179).

(15) انظر: «إثار الحق على الخلق» (ص140، 141)، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.

(16) قال ابن تيمية: «ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف»، وتبعه الزركشي وابن حجر في «اللآلئ»، والسيوطي وغيرهم. انظر: «كشف الخفاء» للعجلوني (2/ص122)، و«المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص327).

وإن قال بعض كبار الصوفية - مثل محي الدين بن عربي: «صح عندنا كشفًا وإن لم يصح سندًا»[17].

فالأحاديث لا تثبت عن طريق الكشف والإلهام، بل بالسند الصحيح المتصل، السالم من الشذوذ والعلة، وهذا ما أجمعت عليه الأمة. على أنه لا حاجة إلى هذا التكلف، والآية صريحة الدلالة على المراد. وبعض العلماء استدل بالآية الأخرى من سورة الذاريات، وهي قوله تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** [الذاريات: 56]. وقد فسرها مجاهد بقوله: إلا ليعرفون.

* * *

= و«مختصره» للزرقاني (ص160)، و«تمييز الطيب من الخبيث» (ص122)، وغيرها.

(17) نقل ذلك الأستاذ.

الغاية العملية للإنسان

وإذا كان هذا هو مكان الغاية المعرفية للإنسان من خلق العالم، فهناك غاية عملية أخرى، عبر عنها أيضًا القرآن الكريم بقوله تعالى: **{وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا}** [هود: 7].

والخطاب في الآية كذلك للمكلفين من بني الإنسان، والغاية من خلق السموات والأرض - كما دلت عليها لام التعليل - ظاهرة كذلك، وهي هنا غاية عملية: **{لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا}**. وهو تعبير قرآني له إيحاؤه ودلالته. فالله خلق السموات والأرض جميعًا ليختبر الناس المكلفين: أيهم أحسن عملًا. فهم خلقوا ليعلموا، بل خلق العالم كله من فوقهم وتحتهم ليعلموا.

الإنسان لم يخلق إذن لمجرد أن يأكل ويتمتع. إن الإسلام لم يحرم عليه أن يأكل الطيبات، ويستمتع بزينة الله التي أخرج لعباده، بل أنكر أشد الإنكار على من زعم حرمة ذلك على الناس: **{قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ}** [الأعراف: 32].

ولكنه حين أباح هذه للإنسان لم يرضها له غاية ورسالة، بل جعلها له وسيلة وآلة. إن الدنيا بكل ما فيها من طيبات وخيرات خلقت للإنسان، أما الإنسان نفسه، فقد خلق لما هو أعظم من الدنيا، وخلق لله الذي سخر هذه الدنيا، وأعده فيها للخلود في دار أخلد وأبقى.

الإنسان الذي همه الشهوة والمتعة يهبط بنفسه من درجة المخلوق المستخلف من الله إلى درك الحيوان الذي لا هم له إلا بطنه ومتعته. وهذا ما

ذم به الله الكفار الحائدين عن الصراط المستقيم بقوله: **{وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ}** [محمد: 12].

الأكل والشرب والمتعة للإنسان أداة ووسيلة، حتى يستطيع أن يقوم بعمله، ويؤدي رسالته، فقد خلق الله الناس ليعلموا، أو كما قال القرآن: **{لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا}** [الكهف: 7]. إنه ليس مجرد العمل الحسن، بل العمل الأحسن: الأفضل والأمثل دائمًا. فالسباق بين العاملين ليس بين حسن وسيء، بل بين حسن وأحسن.

والإنسان المؤمن دائمًا ينبغي أن ينزع إلى ما هو أحسن في كل شيء، كما نبهه على ذلك القرآن. فهو يتبع أحسن ما أنزل إليه من ربه: **{وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم}** [الزمر: 55]. وهو يدفع السيئة بالتي هي أحسن: **{وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ}** [فصلت: 34]. وهو يجادل المخالفين بالتي هي أحسن: **{ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ}** [النحل: 125]. وهو يستثمر أموال اليتامى بالتي هي أحسن: **{وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ}** [الأنعام: 152].

ومعنى هذا: أنه إذا كانت هناك طريقتان لدفع السيئة، أو لجدال المخالفين، أو لتنمية مال اليتيم: أحدهما حسنة، والأخرى أحسن منها، فالإنسان المؤمن مطالب أن يستخدم الطريقة التي أحسن وأفضل، ومقتضى هذا أن عليه أن يفكر ويبحث أبدًا عن المنهج الأفضل، والوسيلة الأمثل، ولا يرضى لنفسه الأدون والأدنى.

وإن هذه العبارة: **{أَحۡسَنُ عَمَلٗا}** تكررت في القرآن عدة مرات في مقام

التعليل. في سورة الملك يقول سبحانه: **{تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ1 ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا}** [الملك: 1، 2]. وفي سورة الكهف يقول عز وجل : **{إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا}** [الكهف: 7].

* * *

تفصيل للمقصد الإلهي من خلق الإنسان

وبهذا كله نعلم من صريح آيات القرآن: أن الإنسان وهو المقصود من خلق العالم كله، أن الله خلق هذا الكون الكبير بسمواته وأرضه؛ ليقوم هذا الإنسان المستخلف من الله بوظيفته في الأرض، ورسالته في الوجود، وهي رسالة تتركب من عنصرين أساسيين:

1 - عنصر معرفي علمي، وهو أن يعرف الإنسان ربه ورب هذا الكون معرفة صحيحة، بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، ولن يتم له ذلك إلا إذا عرف نفسه، وعرف الكون من حوله.

2 - وعنصر عملي سلوكي، وهو أن يعمل فيحسن العمل، بل يجتهد أن يكون: {**أَحْسَنُ عَمَلًا**}.

وقد فصل بعض أئمة المسلمين هذا العمل، أو العمل الأحسن المقصود من خلق الإنسان، وهو ما ذكره الإمام الراغب الأصفهاني «ت502هـ - 1108م» في كتابه القيم «الذريعة إلى مكارم الشريعة» فقال: «الإنسان من حيث هو إنسان كل واحد كالآخر، كما قيل: فالأرض من تربة والناس من رجل». وإنما تشرف بأن يوجد كاملًا في المعنى الذي وجد لأجله.

كالبعير إنما يختص ليبلغنا وأثقالنا إلى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس.

والفرس ليكون لنا جناحًا نطير به.

والمنشار والمنحت لنصلح بهما الباب والسرير ونحوهما.

والباب لنحرز به البيت.

فالفعل المختص بالإنسان ثلاثة:

1 - عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى: **{وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}** [هود: 61]. وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره.

2 - وعبادته سبحانه المذكورة في قوله تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** [الذاريات: 56]. وذلك هو الامتثال للباري تعالى في عبادته في أوامره ونواهيه.

3 - وخلافته المذكورة في قوله تعالى: **{وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}** [الأعراف: 129]. وغيرها من الآيات، وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة، ومكارم الشريعة هي: الحكمة، والقيام بالعدالة بين الناس في الحكم، والإحسان والفضل، والقصد، منها: أن يبلغ بذلك إلى جنة المأوى وجوار رب العزة تتت.

وكل ما أوجد لفعل ما فشرفه لتمام وجود ذلك المعنى، ودناءته لفقدان ذلك منه كالفرس للعدو، والسيف للعمل المختص به في القتال. ومتى لم يوجد فيه المعنى الذي لأجله أوجد كان ناقصًا. فإما أن يطرح طرحًا أو يرد إلى منزلة النوع الذي هو دونه كالفرس إذا لم يصلح للعدو اتخذ حمولة، وأعد أكولة، والسيف إذا لم يصلح للقطع اتخذ منشارًا، فمن لم يصلح لخلافة الله تعالى ولا لعبادته ولا لاستعمار أرضه، فالبهيمة خير منه. ولذلك قال الله تعالى في ذم الذين ثكلوا هذه الفضيلة: **{إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا}** [الفرقان:

44][18].اهـ.

وبعد، فهذه هي قيمة الإنسان ومكانته في نظر الإسلام، وتلك هي غاية وجوده ومقصد الخالق من خلقه، كما بينها القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وفصلها علماء المسلمين.

وما أعظم الفارق بين هذا الإنسان - إنسان الإسلام والإنسان كما تصوره الفلسفات المادية والوضعية.

وصدق الله العظيم إذ يقول: **{أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}** [الأنعام: 122][19].

* * *

(18) انظر: تفسير الآية في تفسير الفخر الرازي والقرطبي.

(19) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» للراغب الأصفهاني (ص31 - 32)، ط. دار الكتب العلمية.